

المجال الحيوي الروسي في ضوء توسع حلف شمال الاطلسي بعد الحرب الباردة

وليد محمود أحمد

قسم الدراسات السياسية والاستراتيجية / مركز الدراسات الإقليمية / جامعة الموصل

waleednajjo@gmail.com

القبول: ٢٠١٩/١٢/١



الاستلام: ٢٠١٩/٩/١٥

مستخلص البحث

ظل المجال الحيوي لروسيا عبر مراحل تاريخها يمثل هاجساً يثير القلق من امكانية اختراق هذا المجال وبالتالي النيل من الامة الروسية. ولأول مرة تمكنت القوى الغربية المناهضة لروسيا من العبث بهذا الحاجز الامر الذي هدد الامن القومي الروسي بوضوح. عليه كان الرد الروسي على ذلك هو اظهار القوة الروسية في جورجيا ومن ثم في شبه جزيرة القرم لتذكير الغربيين بأن القوة الروسية ما تزال هائلة وانه لا مجال للمغامرات الغربية في الاراضي الروسية او في مجالها الحيوي. الكلمات المفتاحية: الفكر السياسي الروسي؛ المجال الحيوي الروسي؛ التوجهات الخارجية الروسية.



The Russian Vital Area in Light of NATO's Expansion After the Cold War

Waleed Mahmood Ahmed

Lecturer / Department of Political and Strategic Studies /
Regional Studies Center / University of Mosul

waleednajjo@gmail.com

Received: 15/9/2019



Accepted: 1/12/2019

Abstract

Throughout its history, Russia's vital field has been a concern because of the penetration possibility for this field by the enemies which may undermine the Russian nation. For the first time, the anti-Russian Western powers managed to tamper with this barrier, which threatened Russian national security clearly. Therefore, the Russian response to that was a show of Russian strength in Georgia and then in Crimea to remind Westerners that Russian power is still enormous and there is no room for western adventures in Russian territory or its vital field.

Keywords: Russian political thought; The vital field of Russia ; Russian foreign trends .

مقدمة

شهدت نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات من القرن الماضي، متغيرات سياسية دولية، أبرزها انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي، ما ترتب عليه انكفاء لسطوة روسيا السوفيتية، مقابل تفوق الهيمنة الامريكية، وكان ذلك كافياً لإظهار زعامة القوة الامريكية، ومؤشراً لبدء عهد جديد ظهرت فيه السيادة العالمية احادية القطب لوقت قصير على الاقل.

القت تداعيات انتهاء الحرب الباردة بظلال قاتمة على مستقبل روسيا آنذاك في ظل تهاوي نفوذها العالمي فضلا عن مشاكل اقتصادية- هددت باقتلاع تماسك روسيا الدولة التي لم تسعفها بيروسترويكيا غورباتشوف.

في ظل المتغيرات المشار اليها كانت الضبابية طاغية على المشهد الدولي، وكانت التساؤلات تدور حول ما اذا كان الذي حصل هو انتهاء عهد من الثنائية القطبية، ام انه بدء عهد جديد في العلاقات الدولية يتجاوز في مضامينه الاسس الايديولوجية التي حكمت النظام الدولي الذي ظهر على ركام الحرب العالمية الثانية، والذي قدم قطبيه (الاشتراكي والرأسمالي)، مشروعين مختلفين للإنسانية، اراد كل منهما رهن العالم بمشروعه، لكن قوة التنوع الانساني عصفت بأحدهما، رغم ان ذلك ما كان ليعني فوز المشروع الاخر على علاته، بقدر ما أشّر الى وجود عوامل سلبية كامنة في المشروع الاشتراكي، اطاحت به امام نقيضه الرأسمالي.

اشكالية البحث: تتمثل إشكالية البحث في أن روسيا الاتحادية اضحى لها مجال حيوي جديد بعد انتهاء الحرب الباردة، وحاولت الولايات المتحدة التغلغل في هذا المجال الحيوي الروسي في محاولة لتحجيم نفوذها الإقليمي والدولي من النواحي السياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية والاستراتيجية فهل نجحت الولايات المتحدة بذلك؟ ام انها لم تفعل سوى ما ادى الى استنزاف الروس ودفعهم لاتخاذ اجراءات عسكرية وامنية في فعاليات اعادت تذكير العالم بأجواء الحرب الباردة ؟ .

فرضية البحث: تنطلق فرضية البحث من فكرة ان الرأسمالية الغربية تقتض انبثاق عهد جديد يلي فترة ما بعد الحرب الباردة لذا حاولت الاستثمار في الفترة الانتقالية ما

بين تراجع القوة الروسية، وبين بدء عهد قادم يؤشر لعالم جديد تخشى معه الرأسمالية ان لا تكون متفردة في الهيمنة عليه، لذا سارعت الولايات المتحدة بذراعها العسكري في اوروبا المتمثل بحلف شمال الاطلسي بالاستمرار بمحاولة تحطيم خصمها الروسي عن طريق تغلغلها بمجاله الحيوي والاستحواذ على دول الخارج القريب لروسيا الاتحادية الناشئة.

أهمية البحث: تتركز أهمية البحث في تسليط الضوء على المشهد الروسي عشية انتهاء الحرب الباردة من خلال عودة الدفاء للمشاعر الاوروبية في الخطاب الرسمي والمجتمعي الروسي تجاه اوروبا على اعتبار ان الشيوعية السوفييتية اختطفت روسيا من واقعها الاوروبي، وانه آن الأوان لعودتها الى العائلة الاوروبية. فضلا عن ذلك يحاول البحث تسليط الضوء أيضا على الظروف الداخلية في روسيا الاتحادية والظروف الدولية التي أحاطت بها لاسيما خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي وطبيعة السياسة الامريكية تجاه روسيا ومجالها الحيوي خلال تلك المرحلة المهمة التي شهدت انكفاء روسيا عن المشهد العالمي والأوروبي بعدما لحق بها من مشاكل اقتصادية وتخبطها بين التوجه غربا نحو اوروبا للاندماج مع المجتمعات الاوروبية او التوجه شرقا لاستعادة نفوذها الذي فقدته غربا بعد ان توغلت اوروبا الحلف الاطلسي الى مقربة من حدود روسيا الغربية مما اثار الهواجس الروسية من امكانية تطويق روسيا وفرض العزلة عليها من قبل الغرب ، الامر الذي ردت عليه بمبدأ حماية العرق الروسي خارج روسيا لكسر العزلة التي حاولت اوروبا والغرب فرضه عليها .

منهجية البحث: اعتمد البحث على المنهج التحليلي لمعالجة المضامين الاساسية للفكر السياسي الروسي في مقاربتها للفكر الاوروبي اكثر مما هو استعراض للمتغيرات السياسية الدولية التي نجمت عن انهيار الشيوعية السوفييتية وظهور روسيا الاتحادية.

المبحث الأول

روسيا الاتحادية في المشهد الاستراتيجي العالمي عشية انتهاء الحرب الباردة

دائماً ما اتخذت روسيا تجاه أوروبا موقفاً غريباً امتزجت فيه حالة من الرفض أو القبول بما هو أوروبي، فقد شكلت القارة الأوروبية بالنسبة لروسيا منبعاً يثير كثيراً من القلق والخوف، وبنفس الوقت نموذجاً مبهراً ينساق له الروس.

كانت روسيا ترغب في وقاية نفسها، فهي عندما تقرر التقدم بخطوات حذرة نحو الاندماج مع عائلة الشعوب الأوروبية، فأنها بنفس الوقت، ترغب في خصوصيتها ضمن إطار أوروبا. هذه الصورة لسلوك روسيا الأوروبية كانت تبعث على القلق في أوروبا من إذ صلتها بضعابية التصورات الأوروبية تجاه الأداء الروسي في السياسة والفكر منذ حكم القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥)، ومنذ عزلة روسيا الأرثوذكسية^(١) عن أوروبا الكاثوليكية، وصولاً إلى تناقضات الفكر السياسي الروسي في صورته السوفييتية عن نظيره الأوروبي في تطبيقاته المجتمعية، فيما لم تكن روسيا في مرحلة ما بعد السوفييتية استثناء عن تلك الصورة.

بعد انهيار الشيوعية، بدأت متغيرات الوضع الدولي بالظهور لتؤثر بزوغ مرحلة جديدة تختلف عما سبقتها من مرحلة ماضية، وعلى قدر ما يتصل بالوضع الروسي فقد اضطرت روسيا إلى سحب قواتها العسكرية المتمركزة في وسط أوروبا^(٢) بما أظهر تراجعاً بما يقرب من ١٥٠٠ كيلومتر نحو حدود روسيا الغربية، الأمر الذي شكل متغيراً جذرياً في مجال روسيا الحيوي فيما يتعلق بهامش مناورة قواتها في حال ما إذا وقع اشتباك عسكري، أما الخطوط الحمراء المرسومة على الخرائط العسكرية الروسية التي تشير إلى أوروبا فلم يعد لها اثر، ولم يعد هناك حزام استراتيجي يتكون من دول حليفة لروسيا يحيط بمجالها الحيوي حين أصبحت عاصمة البلاد على مقربة من خطوط المواجهة المفترضة^(٣).

فضلا عن ذلك فان منطقية معادلات توازن القوة بين روسيا الحالية الناشئة بعد الحرب الباردة، والغرب قد أصبح مصيرها مقلقاً بشكل كبير بعد ان كانت القدرات العسكرية لروسيا السوفييتية تفوق مثيلاتها الغربية بنحو ثلاث مرات. اما حالة الاقتصاد الروسي الذي اصبح بوضع صعب بعد انهيار الشيوعية، فقد تعرض ايضاً لأضرار فادحة^(٤)، اذ ان عدم توفر غطاء مالي لإعادة نشر قسم ضخم من القوات في داخل البلاد، أصاب القدرات القتالية للجيش بضعف واضح، ولم يكن الإصلاح الهادف إلى تجديد تلك القدرات قد بدأ بعد، فعلى سبيل المثال كانت فكرة استبدال قطعات روسية في يوغسلافيا بقوات السلام التابعة للأمم المتحدة، قد تسببت بمشاكل من إذ التمويل المالي. فضلا عن استنزاف واضح للقدرات القتالية لإنهاء حالة النزاع في الشيشان والذي هو صراع محليّ منهك، وكان إرسال قوات مرابطة في مناطق مختلفة من أنحاء البلاد (حتى في الشرق الأقصى)، قد فعل فعله بشكل كارثي على مجمل القدرات الروسية، لذا بدا وكأنه عجزٌ فاضحٌ للقوات الروسية فيما اذا حصلت مواجهة خارج البلاد امام قوات حلف شمال الأطلسي، او إذا ما افترض نشوب صراعٍ محتملٍ في أوروبا إذ لن تكون روسيا مستعدة له في المدى المنظور، الامر الذي ينجم عنه تغييرات هامة جداً ليس فقط في التوصيات المتعلقة بالسياسات الخارجية^(٥) التي توجب على روسيا ان تتبناها حسب ظروفها آنذاك، إنما أيضاً على مستوى توجهاتها الاستراتيجية التي اختلفت جذرياً عن حقبتها السوفييتية.

في إطار المقارنة (المتشائمة روسياً) فإن النتائج الجيو-استراتيجية للمتغيرات التي شهدتها أوروبا ، اعتُبرت ضارة تماماً بروسيا، فقوة البلدان التي تقف في مواجهتها متحدةً، باتت تفوق قدراتها العسكرية كثيراً، وبالتالي كان لابد من إجراءات حاسمة^(٦) تفرض نفسها لأجل تغيير الحال مثل تطوير مواقع انتاج الاسلحة النووية وبذل جهود كبيرة من أجل إنشاء تحالف عسكري تكون روسيا محوره، وإعادة تنظيم القوات المسلحة، وإعطاء أولوية أكبر للإنفاق العسكري، وتكوين شبكة من القواعد العسكرية الروسية خارج حدود البلاد والعمل على اتخاذ قرار بمضاعفتها.

وفي تفسير بديل للواقع الاستراتيجي هذا، فلا بدّ من ترتيبات مختلفة، إذ انه مع الانسحاب من أوروبا الوسطى، فقد اختفى الاحتكاك العسكري المباشر مع دول حلف شمال الأطلسي، فأوروبا الغربية أصبحت مؤمنة بحزام أمني مزدوج يتكون من أطرافٍ من حلف وارسو السابق والجمهوريات الغربية للاتحاد السوفييتي السابق، وتقلّصت مساحة الأراضي الواقعة ضمن حدود المسؤولية العسكرية لروسيا الاتحادية، والتي من شأنها تخفيف عوامل التوتر، لكن مخاطرها ستكون ثقيلة في حال اذا ما حدث تصعيد عسكري غير متوقع بين الطرفين^(٧).

غير أن الوجه السياسي للقضية كان أهم بكثير من وجهها العسكري، فالتطورات الكبيرة الناجمة عن انهيار الشيوعية بلغت حداً لدرجة أن روسيا وجدت نفسها للمرة الأولى في تاريخها، تتخلى - واهمة - عن الفكرة القائلة بغياب الخطر العسكري القادم من الغرب، فالعلاقات الجديدة التي أقامتها مع البلدان الغربية ظنت انها تسمح لها بالانتقال من المواجهة إلى التعاون في إطار المجال السياسي-العسكري^(٨).

هذه الحقيقة انطوت على أهمية حيوية بالنسبة لروسيا باعتبار انها لا تستطيع المقاومة مادياً، فضلاً عن كونها عاجزة عن المواجهة، بل وحتى على المحافظة على التكافؤ، فمن وجهة نظر اقتصادية فإن اختيارات مثل تلك ستكون كارثية بالنسبة لروسيا، ومن شأنها أن تقود البلاد على الصعيد السياسي إلى مأزق سيكون الخروج منه أصعب عليها بكثير من أيام الحرب الباردة^(٩).

في الفترة الأولى من مرحلة ما بعد السوفييتية، بدا أن المفهوم الروسي حول الأمن الأوروبي تبسيطاً غير واقعي، فقد اوضح مؤسسو السياسة الروسية الجديدة، بعد أن انقلبوا على الشيوعية، ان هدفهم الأولي في ميدان السياسة الخارجية هو الدخول في الجماعة الدولية بصفة دولة ديمقراطية تعتمد على نظام اقتصاد السوق، واعتقد هؤلاء المؤسسون الجدد، أن الأمن قد تحقّق فوق القارة بشكل وطيء، غير انه سرعان ما بدا وانه بداية موجة من توجيه اللوم القاسي الى (ديمقراطيي الموجة

الاولى) نظراً لأوهامهم وفشلهم في قراءاتهم للمتغيرات الدولية التي اعقبت تفكك القطب السوفييتي، وتداعياتها على الكيان الروسي في عالم القوى الدولية الناشئ لمرحلة ما بعد الحرب الباردة. فقد ظلت اوهام اعادة بناء البيت الاوروبي المشترك في افكار وتصورات السياسيين الروس الجدد بأمل الانخراط اوروبيا في محاولات لاستشعار دفاء فقده الشعور القومي الروسي بعد ان تركته نهاية الحرب الباردة على غير طريق العلاقات الدولية للدول ذات الهيبة والسطوة، غير ان النشوة الغربية المنتشية بالظفر، لم تكن على استعداد بعد لاحتضان ما اقض مضاجع امنهم ووضع بلدانهم على مدى اكثر من اربعة عقود على شفير الهلاك، من دون فرضها لما ينبغي لما هو مفاجئ لها مستقبلا من نوايا الروس^(١٠).

هذه التفاصيل الدقيقة لم يكن لها سوى أهمية بسيطة في نظر الروس إزاء المنظور العظيم الذي توهمته موسكو لنفسها من خلال رؤيتها لتكوين بنية ليست أوروبية فقط، بل بنية اطلسية عظمى تكون روسيا فيها صاحبة القيادة بدلا من امريكا ما وراء الأطلسي^(١١).

غير أنه سرعان ما ظهرت الشكوك المتعلقة بمدى سلامة التوجهات الروسية المحصورة نحو الغرب، فقد ارتبطت تلك الشكوك في جزء كبير منها بالأحداث الداخلية الروسية في فترة كانت قوى المعارضة السياسية لحكم الرئيس بوريس يلتسين (١٩٩١ - ١٩٩٩)، قد بدأت تستخدم ملف فشل السياسة الخارجية الروسية ضده .

لقد نشأت القفزة النوعية في خارطة الحياة السياسية الروسية الداخلية بشكل واضح بعد انتخابات كانون الأول عام ١٩٩٣، التي تميزت بالنجاح الذي حققه الحزب الشعبي القومي بقيادة فلاديمير جيرنوفسكي. لقد أذهل هذا التعبير عن الإرادة الشعبية الروسية، كلا من الليبراليين والديمقراطيين، الذين كانوا يشكلون جزءاً كبيراً من فريق الرئيس يلتسين، فأسرعوا إلى اعتماد المفردات الوطنية في الخطاب السياسي الروسي بهدف تجيير الشعارات (الشعبية - الوطنية) - التي استخدمها المتطرفون الفائزون - لحساب الكرملين^(١٢).

ان الشكوك الكبيرة التي ظهرت في روسيا ما بعد الحرب الباردة، وجدت جذوراً لها أيضاً في واقع الحياة السياسية الدولية، فالدعم البلاغي المستمر الذي قدمه الغرب للتحويلات في روسيا، لم يتحول إلى تلك (الأمطار الذهبية) المأمولة، فقد كان المستثمرون الأجانب بحاجة إلى ما هو أكثر من جديّة النوايا الإصلاحية التي نودي بها في روسيا^(١٣).

في الجانب الآخر، والملامس للكبرياء الروسية، بدأ أن الحضور الروسي في المحافل السياسية الدولية، وكأنه قد تعرض لانتكاسة معنوية بعد ان وجدت روسيا نفسها انها لم تعد شريكا لا غنى عنه في التسويات المتعلقة بالأزمات السياسية الدولية، من هنا تولد انطباع عند الروس بأن الآخرين (الغربيين) يريدون الالتقاء ببلادهم إلى المواقع الثانوية.^(١٤)

كانت القناعات الأوروبية المتجذرة تاريخياً والتي أدركتها روسيا لاحقاً، تشير إلى ان الحالة الروسية تلقت نتائج سلوكياتها عبر الحقب الزمنية الماضية من إذ فشلها في الاندماج بشكل ايجابي في البنية المجتمعية الأوروبية، ففقدت بذلك ما كان يمكن ان تستحوذ على ما يليق بها كقوة عظمى ضمن الكيان الأوروبي ككل. وتبعاً لذلك اهتمام الرأي العام الروسي ليصب نحو مصالح البلاد الاستراتيجية، بعد ان ارتدت خائبة تلك الآمال الروسية المعقودة على الرأي العام الغربي في تنقية البلاد الروسية من شوائب الشيوعية السوفييتية حسب (التوصيف الغربي)، اذ سرعان ما تعالت اصوات الخطاب السياسي الروسي الخارجي والداخلي على حد سواء لتذكير الرأي العام الداخلي الروسي، والرأي العام الخارجي الاجنبي بان روسيا وان لم تعد تشكل قوة عظمى، الا انها قادرة على المطالبة بمكانة القوة العظمى واستعادة نفوذها الدولي. غير ان مثل هكذا سلوكيات قد لا تكون في توقيتها المناسب، وقد لا تنسجم مع واقع بلاد مثل روسيا وهي تمر بأزمة اقتصادية داخلية، وتعاني من تراجع لهيبتها الخارجية، لذا فإن تسويق طروحات تتحدث عن القوة العظمى قد لا تتجح امام رأي عام داخلي يعاني، وأمام رأي عام خارجي ليس من السهل استمالاته فكرياً لصالح

اقناعه بالرعب الروسي الناشئ مثلما كان يراه رعباً حقيقياً في حقبة روسيا السوفييتية. هذا التسويق المذكور يفضي بالضرورة الى نتائج عكسية هي غير المرجوة عند القائمين على اطلاقها عبر الاعلام الخارجي^(١٥).

اما الاتجاه الاخر المعبر عن فرضية استعادة الهيبة الروسية الضائعة في ظل فوضى تفكك الاتحاد السوفييتي وانهايار الشيوعية، فقد ارتكز على تذكير الغرب بشكل متكرر بأن ما كان فضاءً سوفييتياً في السابق، يمثل الان المجال الحيوي لروسيا الاتحادية وانه لا مجال للإنكار حول درجة الارتباط الوثيقة والمتبادلة بين جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة، وبين روسيا الاتحادية، فثمة الكثير من القضايا المشتركة بينهما، والتي تصيب المصالح الروسية بشكل مباشر، مما يستدعي أن توليها روسيا الاتحادية الحالية أهمية كبرى، وعلى الرغم من ان موسكو تعاملت معها خلال فترة (الدفاء الفكري مع الغرب) في مرحلة ما بعد الحرب الباردة على أنها اصبحت مسائل ثانوية، الا انها سرعان ما عاودت قلب الصورة لتتغير من فكرة النفوذ الروسي المحدود في جمهوريات الاتحاد السوفييتي في شرق وجنوب شرق اوروبا، الى مبدأ التحذير من الاقتراب من مجال المصالح الحيوية لروسيا الاتحادية^(١٦)، وهذا ما ستعرض تفاصيله في المبحث التالي.

المبحث الثاني

روسيا الاتحادية (الانعرالية) ومجالها الحيوي في ما بعد الشيوعية السوفيتية

منذ انتهاء مرحلة الحرب الباردة، بدا وان هناك رفضاً غربياً واضحاً لإعادة انتاج افكار تتحدث عن منافسة استراتيجية قادمة بين الروس وبين الغربيين، او حتى مجرد وجود بقايا اثار من جغرافيا سياسية تقصل اوروبا عن روسيا على اعتبار ان موسكو وحسب وجهة النظر الغربية، قد اصبحت في طريق تجاوزت معه افكارها الامبراطورية على من يجاورها اوروبيا، وانه آن اوان ما يمكن تسميته بالانسجام الروسي ضمن العائلة الاوروبية وليس التسلط عليها، غير ان ذلك لم يكن ليعبر سوى عن نظرة طموحة تقتدر لواقعية العالم آنذاك، فتاريخ روسيا الاوروبي الطويل، عصفت به عوامل الجاذبية نحو اوروبا على نحو، وعلى نحو اخر عصفت به عوامل التنافر الى حد العداوة^(١٧).

كانت روسيا القيصرية ومنذ عهد القيصر بطرس الاكبر، تعد قوة اوروبية، وهي عضو منذ امد بعيد في دول الوفاق الاوروبي، وتملك خصائص فريدة من أبرزها حجمها الواسع الممتد من اسيا الى اوروبا. لقد شكلت طبيعتها الجغرافية هذه مجالا لتأرجحها بين اسيا واوروبا، الامر الذي يوضح ما لدى الروس من شعور ينتابه عدم الأمان ربما يكون ناجما عن حدودهم الواسعة التي قد تخلق لهم تحديا استراتيجيا طبيعيا^(١٨).

على الرغم من ان كل من روسيا القيصرية والاتحاد السوفييتي لم يكونا يشعران بالأمان فيما يخص علاقاتهما مع الغرب، الا ان نظرة روسيا القيصرية لصراعاتها مع الدول الكبرى الاوروبية لم تتمحور على مبدأ الوجود مقابل محو الاخر، إذ ظلت افكار القياصرة تتمحور حول حماية المجال الحيوي لروسيا من شرور اوروبا، رغم ان الزعماء الروس والاوروبيين آنذاك لم يكونوا ينظرون الى صراعاتهم الاوروبي، الا بوصفه امرا كامنا في صميم النظام الدولي^(١٩) حينذاك، وبينما كان القياصرة يحققون

مصالحهم باستخدام القوة العسكرية، كان الزعماء السوفييت ينظرون الى العالم الغربي على انه يهدد وجود الشيوعية السوفييتية. ومن هنا بدأت الفعاليات السوفييتية في دول المجال الحيوي للاتحاد السوفييتي تنشط لحماية المجال المذكور، ومع ان المصالح الواقعية السوفييتية تناغمت الى حد كبير مع مصالح اوربا القرون الماضية والتي رغم انها قد تجاوزت الاهداف التي نادى بها الاباء المؤسسون للشيوعية السوفييتية والتي تشير الى ضرورة غزو العالم لنشر المبدأ الاشتراكي، الا ان العامل الإيديولوجي الشيوعي ظل يدفع باتجاه اطلاق تصريحات خارجية تفيد باستحالة التعايش طويل الامد مع الرأسمالية حتى وان كان كل من النظامين الشيوعي والديمقراطي قد وصلا الى نقطة التعايش السلمي^(٢٠).

اتسمت علاقة موسكو بالغرب منذ نهاية مرحلة الحرب الباردة بالتناقض مثلما كانت في أيام القيصرية إذ تتنامى العلاقات الاقتصادية والثقافية بشكل واضح حتى في ظل استمرار حالة انعدام الثقة. لقد ظلت هواجس روسيا الاتحادية الناشئة بعد الحرب الباردة تلامس الاثار السلبية (لحمى التحالفات) التي كانت تجري في مجالها الحيوي لحدودها الغربية والجنوبية الغربية في حين لم تحظ حدودها الملاصقة لآسيا الوسطى الا بأهمية متقلبة^(٢١).

شهد العام ١٩٩٢ بدء التوجهات الروسية نحو التأكيد على احقية موسكو في حماية العرق الروسي إنما وجد، وفي توصيفه لهذه الحالة، اوضح الخطاب الرسمي الخارجي للقادة الروس ان هناك مزيداً من المخاطر الناجمة عن الصراعات الداخلية، وهو يعكس بالضرورة حالة من الاضطرابات المستمرة في البلدان المجاورة لروسيا الاتحادية^(٢٢).

لأجل ذلك ظلت القوات الروسية منتشرة في جوار روسيا طيلة فترة التسعينيات من القرن الماضي منها على سبيل المثال جورجيا ومولدافيا رغم ان الرأي العام الروسي آنذاك كان يعارض بشكل عام التدخلات العسكرية الخارجية، إذ دفعت المعارضة الشعبية الى جانب النقص الحاد في تمويل الفعاليات العسكرية خارج

روسيا الى تقييد الحماس لنشر القوات الروسية خارج البلاد، غير ان رغبة روسيا الاتحادية في الوجود عسكرياً في دول الخارج القريب لم تختفي تماماً مما ادى الى تعليق العمل بتنفيذ معاهدة الاسلحة التقليدية في اوربا لعام ٢٠٠٧^(٢٣).

لقد عبّرت روسيا الاتحادية ومنذ ظهورها بعد الحرب الباردة عن وجهات نظر متناقضة فيما يتصل بالغرب وحلف شمال الاطلسي، فمن جهة جاهرت التصريحات الروسية الرسمية بعدم وجود اعداء لها، ومن جهة ثانية كانت التحذيرات الروسية تنهال بالحديث عن مخاطر الدول والتحالفات التي تسعى للهيمنة على مجال روسيا الحيوي وتوسعاتها المحتملة في سياق تصريحات روسية تشير بأصابع الاتهام الى كل من الولايات المتحدة الامريكية والنااتو في وقت كانت روسيا تهدف لبناء علاقات قوية مع الغرب^(٢٤).

بدت التحذيرات الروسية اكثر صراحةً خصوصاً في النصف الثاني من عقد التسعينيات من القرن العشرين، فتوسع حلف شمال الاطلسي في ما كان يمثل مجال روسيا السوفييتية الحيوي طيلة العقد الاول من القرن الحادي والعشرين، انعكس في التصريحات الروسية التي وصفت الحلف الاطلسي بأنه معادٍ وخطير ولا يمكن الوثوق به، وبغض النظر عما اذا كان الحلف يوصف بهذا الشكل ام لا، فما من شك في ان الرأي العام في روسيا، او القادة الروس المدنيين والعسكريين على حد سواء، كانوا ينظرون للمؤسسات الامنية في اوربا على انها تتناقض مع مصالح بلادهم، وان تمدد هذه التشكيلات الامنية على مقربة من حدود وطنهم الغربية والجنوبية الغربية، انما هو امر خطير على امنه واستقراره^(٢٥).

أمكن القول ان تنامي الشعور الروسي بعدم الثقة في الغرب - رغم المحاولات الروسية للاندماج مع اوربا، وتعزيز التوجهات الغربية في السلوك السياسي الروسي - بشكل عام تعزز بمحاولات الغرب للاستحواذ على الدول المجاورة لروسيا تمهيداً لضمها الى مؤسساته الامنية والاقتصادية مما ساهم في تشكل اعتقاد لدى موسكو في ان واشنطن تعمل على تقويض نفوذ موسكو الاقليمي والعالمي من خلال دعمها

للقوى الديمقراطية. فتعزيز الديمقراطية يشير اليه القادة الروس على انه تدخل غربي في مناطقهم، ودفعت تصريحات المسؤولين الامريكيين منذ عهد الرئيس جورج دبليو بوش ٢٠٠٠ - ٢٠٠٨ التي تشيد بانتشار الديمقراطية، نحو تبلور هذا التصور الروسي ما نجم عنه خيبة كبيرة عند الرأي العام الروسي لتشكل صورة واقعية مريبة للغرب لدى القادة الروس من مدنيين وعسكريين^(٢٦).

بناءً على ما تقدم فقد ظهرت مستوى السياسة الخارجية الرسمية، فقد اختلفت الأحاديث المتعلقة بالشراكة الاستراتيجية بين المؤسسات الروسية وبين المؤسسات الغربية. لذا بدأت اولى المحاولات الروسية لوضع الحواجز تجاه الدول الغربية التي فشلت الشراكة معها^(٢٧).

كان هناك تحول حقيقي على الصعيد السياسي، فهذا الغرب الذي ما فتئ يشكل موضوعاً للتجديد المعلن في الخطاب الرسمي الروسي، تحول شيئاً فشيئاً إلى مصدر يثير القلق، فإذا كان الإصلاح الاقتصادي في روسيا يتعثر، فذلك لأنّ الخارج (الغربي) لم يقدم له دعماً جدياً حسب التوصيف الروسي الذي اضاف بأن كل الخطابات المتعلقة بالمساعدات الغربية، ظلت في مجملها كلاماً دونما تطبيق فعلي، وإذا كانت كلفة التغيرات الديمقراطية ضخمة، فذلك لأن اصرار الغربيين على فرض نموذجهم الديمقراطي، مآله الفشل، فالغرب دائماً وحسب التوصيف الروسي هو الذي يضع العقبات أمام إقامة علاقات طبيعية مع جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابقة، إما بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشر، ناشراً الاعتقاد القائل بأن موسكو تعاني من مرض إمبراطوري^(٢٨).

إنّ الأوضاع النزاعية التي شهدتها الفضاء السوفيتي السابق، تعاضمت أيضاً خطورتها لأن الاوروبيين منحوا روسيا فقط القيام بمهمات سلام شكلية في مجلس الدول المستقلة، وليس أكثر من ذلك مما اعطى الأرثوذكسيين الروس المناهضين للغرب، الذرائع في شرحهم للمبررات التي يبنون عليها مواقفهم^(٢٩).

أمكن ملاحظة السهولة التي ينتقل من خلالها الخطاب الرسمي الروسي من

الانزعاج إلى الاتهامات المباشرة بوجود نشاطاتٍ مُعادية لروسيا، رغم ان هناك عدم اهتمام من الكرملين للمبررات التي لجأت إليها المعارضة وورثة النظام القديم من المتشددين، وايضا المقتنعين بأن كل ما يدور على أرض الاتحاد السوفييتي السابق، انما هو نتيجة مغامرةٍ خارجيّة روسية غير مسؤولة انطلت على الزعماء الروس الواثقين بحسن النوايا الغربية التي لم تكن موجودة بالأصل^(٣٠).

كانت المخاوف كبيرة في مؤسسات الدولة الروسية من أن تستثمر المعارضة بتداعيات المغامرة المشار إليها لابتزاز السلطة، لكن أيضاً، كان قادة الجيش والمؤسسات العسكرية - الصناعية الراغبين في إيقاف تداعي الانفاق العسكري، ما يزلون يعلقون الآمال على انبعث صورة العدو الخارجي لان ذلك يمكن ان يفضي الى فرصة لعودة نشاطهم وبالتالي استعادة سطوتهم المفقودة^(٣١).

في هذا الجو المشحون، شعرت السلطة في الكرملين، أن هناك إمكانية لمحو التصور السائد عنها، من عبوديتها للغرب، الى تأكيدها على وعورة التعامل مع هذا الغرب، بالرغم من وجوب الحذر إزاء تسويق صورة الغرب بشكل شرير في الداخل، فالرأي العام الشعبي الروسي رغم انه مشغولٌ بالقضايا الداخلية لكنه ما يزال يعاني من حساسية بما يذكره بأساليب الدعاية السوفييتية تجاه الخارج^(٣٢).

تمتعت النخبة السياسيّة والثقافية الروسية، بمرونة كافية اتاحت لها ان تتأرجح بين موقفها الايجابي تجاه الغرب، وبين نقيضه، لكنها لم تصل إلى اعادة انتاج إيديولوجية المواجهة التي كانت سائدة إبان الحرب الباردة، غير ان فكرة أن الغرب مهتمٌ بإضعاف^(٣٣) روسيا حتى الإنهاك وتقليصها إلى مجرد دولة من الدرجة الثانية، هي فكرة كانت تنتشر شيئاً فشيئاً. في ظروف كهذه، بدا أن تكوين سياسة روسية تجاه أوربا هو أمرٌ واقعي، وأمكن تقسيم أولوياتها حسب الآتي:

الحالة الاولى: تتكون من مجموعة المشاكل الداخلية في روسيا، والأولوية، اتجهت للحفاظ على سلامة أراضي الدولة، وضمان عدم المساس بها اقتصادياً وسياسياً، وأمكن التأكيد على أن موسكو سترفض بحزم أية هندسة أوروبية ترى فيها تهديداً

لبرنامجها الداخلي^(٣٤).

الحالة الثانية: ضمت دول (المجال الحيوي)، إذ تعتقد موسكو انه ينبغي تنظيم الفضاء الجغرافي الروسي وفقاً للمصالح الروسية، وأن يكون عنصراً أساسياً في أوروبا ما بعد الحرب الباردة.

الحالة الثالثة: تمتد حتى الامبراطورية الخارجية للاتحاد السوفييتي السابق، فإذا كانت المنطقة الوسطى التي تفصل روسيا ودول ما بعد الاتحاد السوفييتي عن الغرب، قد تحولت إلى مجال تأثير الغرب، فإن هذا يهدد توازن منظومة الأمن الأوربي بمجملها^(٣٥).

أما بالنسبة إلى إشكالية الأمن الأوربي المشترك، فإن المهم بالنسبة لروسيا هو مكانتها في المنظومة التي هي في طور التشكل، وعليها أن تحتل في تلك المنظومة المكانة الحقيقية لها، وأن تكون لها إمكانية ممارسة نفوذ له وزنه في السياسة الدولية على الصعيد الأوربي وأن تقوم بدورٍ معترفٍ به في تسوية المشاكل المهمة المتعلقة بمصير القارة ككل^(٣٦).

من الواضح أن رسم الأولويات الروسية هذه اكتسى طابعاً عاماً، فإشكاليات الأمن الأوربي لا تنحصر في حالة واحدة، فعلى سبيل المثال ان موقف روسيا تجاه توسع حلف الأطلسي في مجالها الحيوي يوضح جهدها الهائل لعرقلة (تغريب) حلفائها السابقين في حلف وارسو، أكثر من رغبتها في منع قيام بنية اوربية لا تدخلها الا بوصفها عنصراً مركزياً له سمة الزعامة^(٣٧).

لقد اهتمت موسكو بفكرة تكليفها بوصاية دولية للحفاظ على السلام في منطقة مجموعة الدول المستقلة باعتبار أنه يتيح لها الاعتماد على دعم مالي خارجي يترافق مع غطاء دولي لفعاليتها، لكن ردة فعل المجموعة الدولية بعدم الموافقة على تحركات روسية خارج إطار واجبات الوصاية المشار اليها، حولت هذا الاهتمام الروسي إلى العدم، لأن الأهم من هذا بالنسبة لموسكو، هو الاعتراف بدورها الأساسي الفعلي (وليس القانوني) في الفضاء الارضي ما بعد السوفييتي، إذ اعتقدت

روسيا أن مراقبة علاقات شركائها في مجموعة الدول المستقلة مع العالم الخارجي، أمراً لازماً لتقليص الإشكاليات الناجمة عن دخولها في منظومة العلاقات الأوروبية، وفي الوقت نفسه لا يمكن التأكد مما إذا كانت موسكو تتفهم ضرورة أن تقدم لشركائها المذكورين تنازلات جدية، لأنه وبخلاف ذلك سيسعى هؤلاء الشركاء للبحث عن حماة خارجيين، وروسيا يبدو انها لا تقدّر ضرورة اعتبار شركائها في مجموعة الدول المستقلة بمثابة حلفاء لها على الساحة الدولية، لأنه من الضروري ان تتواصل معهم للحصول على دعمهم في ميدان السياسة الخارجية^(٣٨).

كنتيجة للتداعيات الناجمة عن الارتباك الروسي في التعاطي مع متغيرات السياسة الدولية بعد انهيار الشيوعية، بدا ان هناك اصرارا روسيا للهيمنة على فضاء روسيا ما بعد السوفييتية، فقد تحوّلت المعارضة العنيفة لدخول بلدان أوروبا الوسطى والشرقية إلى حلف شمال الأطلسي إلى مبدأ ثابت في السياسة الروسية، وهذا يؤشر الى حالتين تتعلقان بمجال روسيا الحيوي وعلاقته بما يتصل بالأمن الاوروبي، هما: أولاً: تراجع هائل في الخطاب السياسي الروسي المتعلق بالعصر الجديد في العلاقات مع الغرب والشراكة الاستراتيجية وما إلى ذلك، وحسب التوصيف الروسي فإن حلف الأطلسي ما يزال يعد تهديداً لأمن روسيا، وان النظام الامني في اوربا بعد الحرب الباردة ما عادت تقبله روسيا^(٣٩).

ثانياً: تبين ان الموقف الذي اعتمدته موسكو وبشكل واضح، هو أن روسيا كانت تعدّ أوروبا الوسطى والشرقية بمثابة منطقة ينبغي أن تظلّ محايدة، وألاً تصبح في أي حال من الأحوال خاضعة لإشراف تحالفٍ معادٍ لروسيا، ومع أن موقفاً كهذا انطوى على منطق جغرافي استراتيجي استقبله الغرب بشيء من التفهم، غير انه كان واضحاً أن موسكو خسرت المعركة المتعلقة بأوروبا الوسطى والشرقية^(٤٠).

لكن هذه الخسارة لم تنتج فقط بسبب الارتباك الروسي المشار اليه سابقاً والذي تسبب في سرعة اخراج روسيا من عزلتها التي توجب عليها ان تبقى فيها لفترة من الزمن لمعالجة تداعيات انتهاء الحرب الباردة وتقوية البيت الروسي من الداخل، بل هناك سبب آخر اضافي، فقد خاضت موسكو منذ البداية تلك المعركة السياسية فوق

أرض غير مناسبة حينما اختارت الاصغاء للدول الغربية كمتحدثين أساسيين وبرهنت عن تعالي تجاه حلفائها القدامى، ولم تبد أية محاولة لإزالة مخاوفهم من عودتها لممارسة الهيمنة عليهم، ولم تُظهر عملياً رغبة في تطوير علاقات بناءة مع تلك الدول، إذ فضلت الحديث عن مصير منطقة أوروبا الوسطى والشرقية ليس مع أبناء المنطقة أنفسهم، بل مع الشركاء الغربيين، لأن الأهم كان منع توسع حلف الأطلسي باتجاه الشرق أكثر من الاهتمام بمصير سكان المنطقة، وبالنتيجة فقد دفعت موسكو عملياً بيديها بلدان أوروبا الوسطى والشرقية رغماً عنهم باتجاه الغرب^(٤١).

كانت هناك رغبة روسية لمنع دخول دول أوروبا الوسطى والشرقية في الناتو لدرجة أنه غاب عنها عدم اهتمامها بانضمام هذه البلدان إلى الاتحاد الأوروبي، وكان من الواضح أن الطريق للاتحاد الأوروبي سيفضي لاحقاً إلى دخول دول حلف وارشو المشار إليهم، في منظومة الأمن الغربية، وبالنتيجة فإن الحملة الصاخبة حول أوروبا الوسطى والشرقية والناتو كانت خالية من أي معنى استراتيجي يستفيد منه الكرملين. في هذا السياق، ظهر افتراضان، فإما أن يمتد الغضب الروسي إلى مسألة توسيع الاتحاد الأوروبي ومنظمة دول أوروبا الغربية، لكن حظوظ إمكانية قبول ذرائع موسكو المناهضة لذلك، تبدو معدومة، أو ان إشكالية الأمن المطبق على المنطقة المعنوية لا تستدعي الدخول في منافسة^(٤٢).

بناءً عليه فقد تولدت فرصة لإمكانية خروج روسيا من هذا المأزق الذي وضعت نفسها فيه حينما بالغت بطلباتها للحصول على محمية من حلف الأطلسي فهي بتنازلها عن الحدية المفرطة وفتحها طريقاً لمناقشة المسائل المتوافقة مع وجهة نظر مصالحها الأمنية وإن كان بشكل غير معلن، أتاح لها لاحقاً هامشاً مريحاً لتحركاتها في محيط مجالها الحيوي وأسبغ عليها عزلة محصنة بوجه شرور أوروبا والغرب حسب وصفها^(٤٣).

خاتمة

واجهت روسيا الاتحادية الناهضة من ركام الشيوعية معضلات اقتصادية وإشكاليات سياسية داخلية وخارجية في داخل البلاد وفي محيط مجالها الحيوي بشكل بدا وكأنه يفوق قدرات الروس على تخطي ذلك .

في الوقت نفسه تلقى العالم الإشارات الأولى لبدء عهد جديد في العلاقات الدولية تمحور حول الزعامة الأمريكية في مرحلة أعقبت عصر الثنائية القطبية . بذلت الولايات المتحدة ومن ورائها الغرب في مرحلة الانفراد الأمريكي جهوداً كبيرةً للنيل من القوة الروسية في محاولة لتأخير عودتها مرة ثانية للعالم عبر تطويقها بدول موالية للغرب .

أمن الروس بأن عهد الدولة الإمبراطورية (الاتحاد السوفييتي) قد أنهكهم وأن تضحياتهم لأجل الآخرين ارتدت عليهم بالخسارة ، لذا فإن الدولة القومية هي الأنسب لهم ولروسيا بلدهم في مساعيها لاستعادة نفوذها الدولي المفقود وقوتها الطاغية على الأقل أوروبياً

لكن الدولة القومية في عصر العلاقات الدولية الحالي ما عاد بإمكانها المواصلة اقتصادياً بشكل منفرد وإذا أصرت على ذلك فستجعل نفسها بعزلة اقتصادية، فالتدخلات الدولية الآن أرسلت بالمبادئ والأسس ، التي سادت العالم في فترة الحرب الباردة ، إلى عالم النسيان .

عليه فإن التأويل الروسي للواقع البديل، انطوى على نموذج القومية الإمبراطورية مستأنفاً في ثناياه وأبعاده الفكر الإمبراطوري القيصري الروسي الذي خاطب المشاعر القومية السلافية والروحية الأرثوذكسية في المجال الروسي الحيوي لتأمينه من شرور الغرب المتربص به حسب توصيف الروس.

تأرجحت السياسة الروسية بين التوجه غرباً لتجاوز الماضي الشيوعي والاندماج مع المجتمع الدولي ، وبين التوجه شرقاً لاستعادة النفوذ السوفييتي السابق لكنها لم

تتلقى في الغرب ترحيباً أوروبياً بما هو لائق لها ، فيما لم ينجح توجهها شرقاً في استعادة سيطرتها على مناطق نفوذ الاتحاد السوفييتي السابق فانكفأت على عزلتها . لم يعد مفهوم الأمن القومي مقتصراً على حدود روسيا، بل امتد إلى مجالها الحيوي المباشر ليتضمن دول المنظومة الاشتراكية السابقة الأوروبية والآسيوية ، مما تطلب تحركات عسكرية روسية عاجلة لترسيخ هذا المفهوم في الذهن الأوربية والعالمية ، لكن المخاطر جاءت من عدم القدرة على تقادي احتكاك بين متطلبات الأمن القومي الروسي وبين متطلبات الأمن الدولي .

رفضت دول المنظومة الاشتراكية السابقة البقاء ضمن دائرة النفوذ الروسي الجديد مما سبب توترات سياسية بين الروس وجيرانهم غذتها الطموحات الروسية للهيمنة على جوارها الإقليمي فيما لم تستغ روسيا الاتحادية طبيعة النظام الدولي الناشئ بعد انهيار الشيوعية

ان ما ميز النظام الدولي الحالي هو الاندماج في شكل ، والتشرذم في شكل آخر، فالاندماج هو النموذج الحاصل في تشكّل الاتحاد الأوربي ، وإن كان قد أفضى في بعض الأحيان إلى إضعاف النظام السياسي التقليدي المبني على أساس الدول القومية ، أما التشرذم فهو عبّر بالضرورة عن نموذج الحالة السوفييتية والحالة اليوغسلافية الأمر الذي نجم عنه إشكاليات تعلقت بالحدود والأقليات وأخرى اتصلت بالأيديولوجيات مما دفع بمزيد من تفاقم عدم الاستقرار الإقليمي .

الحالة الروسية هنا على المحك وهي تحت تأثير استقطابين ، أولهما يأخذها نحو الإمبراطورية، وهنا السؤال، فإن كانت إمبراطورية فهذا يعني إثنيات وقوميات متعددة، وهو ما تجاوزه الفكر الروسي الحالي في ازدياده للحالة السوفييتية، أو الاستقطاب الثاني، وهو الدولة القومية، وهذا ما لم يعد واقعياً الآن في النظام الدولي الحالي القائم على التداخل الاقتصادي والسياسي، فسيادة الدول لم تعد مقدسة كما كانت واقتصاديات الدول ليست بمنأى عن التأثيرات الخارجية .

بناءً على ما تقدم فإن من المناسب لروسيا تكوين حالةٍ من التوازن بين متطلبات أمنها وبين الواقع الدولي ، وأن تتخلى عن المبالغة في طموحاتها سيما وأن الأمريكيين أنفسهم أبدوا ليونةً في كثيرٍ من الأحيان لصالح الوضع الدولي .
سيظل مجال روسيا مصدراً للتوترات السياسية بين روسيا وجوارها الأوربي خاصة في ظل حالة التشدد المهيمنة على توجهات الكرملين

الهوامش والمصادر

(١) في أوروبا هناك حالات باتت فيها الكنيسة كأحدى مزايا الهوية القومية، مثال ذلك الكنيسة اللوثرية الفنلندية التي تحولت الى احد مكونات الكبرياء القومي الفنلندي في الصراع مع روسيا الارثوذكسية، وايضا كان الحال في الكنيسة الكاثوليكية البولندية، والكنيسة الغريغورية في ارمينيا، وليست مصادفة ان تعقد في هذه الكنائس احتفالات ومناسبات قومية الطابع لتتشكل ظاهرة الديانات الاثنية . للتفاصيل . ينظر،

The Challenge of Ethnic Conflict to National and International Order In the 1990s، Geographic Perspective .PP. 25- 27:

<https://www.cia.gov/library/readingroom/docs/1995->

(٢) في نهاية عام ١٩٩٣ سحبت روسيا حوالي ٦٤٠ الف عسكري واكثر من ٣٠ الف عجلة ودبابه واكثر من ٤ الاف طائرة مقاتلة ومروحية من مناطق شملت التشيك والمجر وبولندا ودول البلطيق . للتفاصيل . ينظر:

ممدوح انيس فتحي، اجراءات توسيع الناتو، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٢٩، لسنة ١٩٩٧، ص ٨٠ .

(٣) افترضت الرؤيا الغربية ان من الممكن توسيع حلف شمال الاطلسي ليضم دولا من مجال روسيا الحيوي لأجل ردع روسيا مستقبلاً . للتفاصيل . ينظر،

The future of NATO and European security, p44:

<https://aiv-advies.nl/download/6934b2f7-1331-4af1-9be0-07c300c28bbc.pdf>

(٤) لقد اثر انعدام الامن الاقتصادي بشكل فعال على مسألة الاستثمار الخارجي في روسيا وتكوين راس المال، الامر الذي ضرب عميقا في جذور السياسة الخارجية الروسية التي تراجعت فاعليتها مما اثر سلبا على حضور روسيا القوي في العالم وبد ان احتضان النظام الراسمالي في روسيا انما هو كارثة على روسيا ...للتفاصيل ينظر،

Kristi Govella and Vinod K. Aggarwal، The Fall of the Soviet Union and the Resurgence of Russia, p3:

<http://www.kristigovella.com/portfolio/The%20Fall%20of%20the%20Soviet%20Union%20and%20the%20Resurgence%20of%20Russia.pdf>

(٥) مرت السياسة الخارجية الروسية بعدة مراحل مختلفة طيلة عقد التسعينيات من القرن العشرين ابتدأت بالتغريب الذي قاده اندريه كوزرييف وزير الخارجية (١٩٩٠-١٩٩٦)، لكن الشيوعيين والقوميين المتطرفين اكتسبوا قوة في انتخابات عام ١٩٩٣ مقابل الاطلسيين الذين فقدوا شيئاً من قوتهم مما اثر على توجهات السياسة الخارجية الروسية فيما بعد ويتسلم بعد كوزرييف، يفغيني بريماكوف (١٩٩٦-١٩٩٨) المعروف بتوجهاته الاوراسيوية. للتفاصيل ينظر،

Robert Freedman, "Primakov and the Middle East: The State of Russian Foreign Policy and U.S. Policy Toward Russia", *The Heritage Lectures* (607):

http://s3.amazonaws.com/thf_media/1998/pdf/hl607.pdf

(٦) كان الهدف الرئيس هو استعادة مكانة روسيا المفقودة منذ تفكك الاتحاد السوفييتي، وتحقيق الاستراتيجية الامنية على المدى البعيد في مجال روسيا الحيوي. ينظر:

نبيه الاصفهاني، "انطلاقة جديدة لسياسة روسيا الاتحادية"، السياسة الدولية، العدد ١٣١، ١٩٩٨، ص ٢٦٧.

(٧) كانت المساعي الغربية قوية لأجل توحيد الدول المحيطة بروسيا من الغرب وضمها الى المنظومة الاطلسية للتصدي لأية محاولة روسية لإقامة ترتيبات امنية اقليمية جديدة مع هذه البلدان . للتفاصيل ينظر،

Dmitry Suslov, "The Russian Perception of the Post-Cold War era and Relations with the West", *Harriman Institute*, Columbia University, November 9, 2016, p.6:

https://www.sant.ox.ac.uk/sites/default/files/university-consortium/files/suslov_harriman_lecture_on_post-cold_war_era.pdf

(٨) يعتقد الروس ان اوروبا اخطأت بعدم ضم روسيا الى المؤسسات الغربية والاطلسية وبدلاً من ذلك استهدفت العمل على تطويع روسيا للمصالح الغربية وتجريدها من صفة الدولة العظمى . للتفاصيل ينظر:

Andrew Wood, "Russia and Europe in 2030 Conflict or cooperation?", Security Policy Working Paper, Federal Academy for Security Policy, No. 12/2015, p.1:

https://www.baks.bund.de/sites/baks010/files/working_paper_12_2015.pdf

(٩) في عام ١٩٩٥ فتحت الحكومة الروسية باب الاستثمار للمستثمرين الاجانب والروس وتم بيع كثير من المؤسسات الصناعية الروسية بحوالي ٣ بالمئة من قيمتها الفعلية مما ساهم في تفشي الفساد وتفاقم مشكلات الاقتصاد وعجزت الدولة عن دفع رواتب موظفيها . للتفاصيل ينظر: نورهان الشيخ، صناعة القرار في روسيا الاتحادية، (بيروت، ١٩٩٨)، ص ٢٢.

(١٠) للتفاصيل ينظر:

Liana Fix, European Security and the End of the Cold War - Gorbachev's 'Common European Home' Concept and its Perception in the West:

https://www.academia.edu/3985863/European_Security_and_the_End_of_the_Cold_War_-_Gorbachev_s_Common_European_Home_Concept_and_its_Perception_in_the_West

(١١) بينما احتفلت بقية القارة بفجر عصر جديد يسوده السلام والوئام في التاريخ الأوروبي، واعتنقت رؤية أوروبا كاملة وحرّة وفي سلام مع نفسها ومع جيرانها، كانت لدى روسيا أفكار ثانية. فكرة النظام الأمني الأوروبي المبني على مفهوم غامض للقيم المشتركة لم تتوافق بشكل جيد مع السياسة الخارجية والمؤسسات الأمنية الروسية . للتفاصيل ينظر:

Eugene Rumer, Russia and the Security of Europe:

<https://carnegieendowment.org/2016/06/30/russia-and-security-of-europe-pub-63990>

(١٢) في هذا الاطار أعلن وزير الخارجية آنذاك أندريه كوزيريف أن "روسيا يجب أن تصبح قوة عظمى طبيعية". رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الدوما ، يفغيني أمبارتسوموف، رحب باقتراح وزير الخارجية وذهب أبعد من ذلك، معلنا أن الوقت قد حان "للتخلي عن التصريحات المثالية لصالح السياسة الواقعية". ينظر،

Victor Zamyatin، Andrei Kozyrev Russia should become a normal great power, Kommersant, 28 November, 1992:

<http://www.kommersant.ru/doc/31532>

(١٣) كانت تدفقات الاستثمارات الاجنبية ضئيلة نظرا للضعف الشديد الذي عانى منه الاقتصاد الروسي بعد الحرب الباردة، فضلا عن ذلك فقد تكبدت روسيا خسائر هائلة بعد هروب رؤسما بين ١٥٠ - ٢٠٠ مليار دولار خارج البلاد بين عامي ١٩٩٢ - ١٩٩٩، علاوة على وراثة روسيا لديون الاتحاد السوفيتي السابق مما انعكس سلبا على تماسك الاقتصاد الذي تعرض لهزات عنيفة لكنه كان لا يزال بعيدا عن الانهيار . للتفاصيل ينظر:

William H. Cooper, Russia's Economic Performance and Policies and Their Implications for the United States , p.6:

<https://fas.org/sgp/crs/row/RL34512.pdf>

(١٤) كان ذلك واضحا اثناء ازمة كوسوفو والازمة اليوغسلافية وبدا ان اندماج روسيا اوروبيا لن يكون متاحا بالنظر للنوايا السلبية الاوروبية تجاه روسيا إذ تطلب الامر ردا حازما بوجه منح الغرب امتيازات لدول جوار روسيا على حساب هذه الاخيرة . للتفاصيل ينظر،

Kristi Govella and Vinod K. Aggarwal،The Fall of the Soviet Union and the Resurgence of Russia, p.4:

<http://www.kristigovella.com/portfolio/The%20Fall%20of%20the%20Soviet%20Union%20and%20the%20Resurgence%20of%20Russia.pdf>

(١٥) في شباط ١٩٩٣، صرح يلتسين أن روسيا لا تزال لديها مصلحة حيوية في جميع اراضي الاتحاد السوفيتي السابق وينبغي منح روسيا صلاحيات خاصة كضامن للسلام والاستقرار في مناطق الاتحاد السوفيتي السابق . للتفاصيل ينظر:

Hannes Adomeit, Russia and its Near Neighborhood، Competition and Conflict with the EU, p.10:

https://www.coleurope.eu/sites/default/files/research.../adomeit_0.pdf

(١٦) وصف الرئيس الروسي فلاديمير بوتين توسيع حلف الناتو بأنه عملية استفزاز أرضية أحادية الجانب من قبل التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة ويسعى إلى توسيع مجال نفوذه. وقال بوتين إن الناتو، من خلال وضع قواته العسكرية على الحدود الروسية، ينتهك الضمانات

المقدمة لروسيا في نهاية الحرب الباردة. وخلص إلى أن هذا النموذج الأمني أحادي القطب غير مقبول. للتفاصيل ينظر:

“Putin’s Prepared Remarks at 43rd Munich Conference on Security Policy,” WashingtonPost, February 12, 2007:

<http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2007/02/12/AR2007021200555.html>

(١٧) سبق وان تعرضت روسيا للغزو على يد القوى الاوروبية الناشئة في مرات عديدة لذلك سعت لحماية نفسها من خلال فرض هيمنتها على الدول الواقعة على حدودها بما فيها دول وسط وشرق اوروبا . للتفاصيل ينظر:

Olga Oliker and others, “Russian Foreign Policy in Historical and Current Context”, *RAND Corporation*:

<https://www.rand.org/pubs/perspectives/PE144.html>

(١٨) ان الامة التي لها حدود واسعة لها ايضا العديد من الاعداء المحتملين سيما وانها كانت غنيمة للغزاة وقد خلق هذا تحديات كبيرة على صعيد الادارة والامن . للتفاصيل ينظر:

Paul Kennedy, *The Rise and Fall of Great Powers: Economic Change and Military, Conflict from 1500–2000*, (New York, 1987), pp. 488–489.

(19) Oliker, and others , Op. Cit.

(٢٠) على الرغم من ان المخططين العسكريين السوفييت كانوا يرون ان العمليات الهجومية لها فائدة اكبر، اصرت القيادة المدنية في الاتحاد السوفيتي على اتباع استراتيجيات دفاعية منذ ايام ليون تروتسكي. للتفاصيل ينظر:

Condoleezza Rice, *The Making of Soviet Strategy*, in Peter Paret, ed., *Makers of Modern Strategy, From Machiavelli to the Nuclear Age*:

http://the-eve.eu/public/Books/4chan_pol_Archives/PDFs/Miscellaneous%20Unsorted/Propertarianism%20Library%20-%20The%20Great%20Books%20of%20the%20Aristocracy/X.%20War/Additional%20Works%20of%20History/Peter%20Paret%20-%20Makers%20of%20Modern%20Strategy%3B%20from%20Machiavelli%20to%20the%20Nuclear%20Age.pdf

(٢١) لم يكن توسيع حلف الناتو مجرد انتزاعاً ارضياً اخلَ بالتوازن الجيوسياسي في أوروبا، ولكنه كان أيضاً انتهاكاً لتأكيدات قدمها الزعماء الغربيون للرئيس السوفيتي آنذاك ميخائيل

غورباتشوف ١٩٨٥-١٩٩١ من ان الناتو لن يتوسع شرقا مقابل الموافقة على اعادة توحيد المانيا . للتفاصيل ينظر،

Mary Elise Sarotte, "A Broken Promise? What the West Really Told Moscow about NATO Expansion," *Foreign Affairs*, September/October 2014: ،

<https://www.foreignaffairs.com/articles/russia-fsu/2014-08-11/broken-promise>

(٢٢) في بيان على التلفزيون الروسي في أعقاب الحرب في جورجيا مباشرة عام ٢٠٠٨، أعلن الرئيس الروسي ديمتري ميدفيدف ٢٠٠٨-٢٠١٢ أن البلدان المحيطة بأطراف روسيا هي مجال للمصالح الروسية المتميزة. ينظر:

Medvedev on Russia's Interests, *The Economist*, September 1, 2008:

http://www.economist.com/blogs/certainideasofeuropa/2008/09/medvedev_on_russias_interests

(٢٣) سلمت الحرب في جورجيا رسالتين متميزتين لجمهورين مختلفين. بالنسبة للغرب، كانت الرسالة هي الابتعاد عن دائرة المصالح المميزة لروسيا. بالنسبة لروسيا، كانت الرسالة أنه على الرغم من الحملة الناجحة ضد جارتها الصغيرة، فإن الجيش الروسي كان بحاجة إلى إصلاح بعيد المدى. ينظر:

Christian Lowe, "Georgia War Shows Russian Army Strong but Flawed, Reuters, 20 August 2008: ،

<http://www.reuters.com/article/us-georgia-ossetia-military-idUSLK23804020080820>.

(٢٤) عارض الزعماء الروس النظام الأمني في أوروبا بعد الحرب الباردة القائم على أسس أيديولوجية، وانتقدوا الجهود الأمريكية والأوروبية لتعزيز الديمقراطية في محيط روسيا باعتبارها سعيًا ضمنيًا لتعزيز نطاق نفوذ الغرب. ينظر:

Sergey Lavrov, "Democracy, International Governance, and the Future World Order", *Russia in Global Affairs*, No.1, 9 February, 2005:

http://eng.globalaffairs.ru/number/n_4422.

(٢٥) قال الرئيس الروسي الحالي فلاديمير بوتين في خطاب له في قمة بوخارست لحلف الناتو عام ٢٠٠٨ إن وعد الناتو بعضوية جورجيا وجورجيا في المستقبل يشكل "تهديدًا مباشرًا" للأمن الروسي، وتحدث عن العلاقات التاريخية بين روسيا والسكان الروس في شرق اوكرانيا وشبه جزيرة القرم ورغبة السكان في إقامة علاقات وثيقة مع الوطن الأم. ينظر:

Steven Erlanger, "Putin at NATO Meeting, Curbs Combative Rhetoric", *New York Times*, 5 April, 2008:

<http://www.nytimes.com/2008/04/05/world/europe/05nato.html>

(٢٦) اعلن القادة الروس أن دفع الغرب لتعزيز الديمقراطية داخل روسيا يشكل انتهاكًا للسيادة الروسية ويحتمل أن يزعزع الاستقرار . للتفاصيل ينظر:

Sergey Lavrov, Op. Cit.

(٢٧) على سبيل المثال كان هناك برنامج الشراكة من أجل السلام بين الناتو وبين روسيا وعندما حاول الناتو توسيع مجال البرنامج ليضم دولاً من جوار روسيا اعترضت الاخيرة بشدة ووقفت التعاون مع الناتو وقد امكن تفسير ذلك من قبل المخططين العسكريين الروس على أنه مناورة لتطويق روسيا. ينظر:

Douglas J. Gillert, "After Jumping, Battalion Learns to Crawl," DoD News U.S. Department of Defense, October 1, 1997:

<https://archive.defense.gov/news/newsarticle.aspx?id=41525>

(٢٨) وجه الكرملين وهو يتبنى شعار (روسيا ليست أوروبا) اتهامات صريحة للغرب من انه يهدد الامن القومي الروسي في سياق ترويج المؤسسات الغربية لنموذج غريب على المجتمع الروسي . ينظر:

Garrison Golubock, "Culture Ministry Affirms 'Russia Is Not Europe'", *Moscow Times*, 7 April, 2014:

http://www.themoscowtimes.com/arts_n_ideas/article/culture-ministry-affirms-russia-is-not-europe/497658.html.

(٢٩) هناك علاقة وثيقة بين الكنيسة الارثوذكسية الروسية وبين السلطة السياسية في روسيا وهي احد الادوات التي تستخدمها روسيا في الابقاء على هيمنتها على دول الفضاء السوفييتي السابق، والارثوذكسية هي اهم اسباب الخلاف الروسي الاوروبي للتفاصيل ينظر:

Nikita Lomagin, "Interest Groups in Russian Foreign Policy, The Invisible Hand of the Russian Orthodox Church," *International Politics*, Vol. 49, 2012:

<https://www.researchgate.net/publication/263326520> Interest groups in Russian foreign policy The invisible hand of the Russian Orthodox Church

(٣٠) عارض الجناح المحافظ من المعارضة، الذي يمثله القوميون والشيوعيون النشاطات الغربية في مجال روسيا الحيوي لأسباب جيوسياسية وأيديولوجية، فيما عارضها الليبراليون والإصلاحيون لأنهم رأوا أنها تضر بموقفهما الضعيف في السياسة الداخلية الروسية، ويتعرض لانتقادات من المعارضين الذين يتهمونهم بخيانة المصلحة الوطنية الروسية وكونهم عملاء للغرب، وهكذا اضحى البرلمان الروسي وكأنه انعكاس لسياسات الكريملين ومؤيدا لها . ينظر:

Jamestown Foundation, "Chubais Demands Compensation for NATO Enlargement", *Monitor* 3, No. 84 April 1997:

<http://jamestown.org/program/chubais-demands-compensation-for-nato-enlargement/>

(٣١) شخصت التقييمات الروسية للجيش انه دون مستوى المواجهة الخارجية واستطردت تحليلات العسكريين بان الجيش الروسي سيواجه عدوا متفوقا من إذ العدة والعتاد وخلصت التحليلات الى ان الخيار الوحيد لروسيا هو اللجوء الى التهديد النووي لانه لم يعد بوسع البلاد وقواتها العسكرية الحالية الجاهزية لخوض حروب بالاسلحة التقليدية . ينظر،

Mikhail Khodarenok, "Third World Scenario," *Military Industrial Complex* , 18 March, 2015:

<http://vpk-news.ru/articles/24284>

(٣٢) أظهرت استطلاعات الرأي التي نظمت داخل روسيا حول اهمية التحديث السياسي والاقتصادي المحلي ميولا نحو افضلية عودة روسيا إلى طريق التحول الديمقراطي وعلاقات تعاون أكثر مع الغرب. ينظر:

" Dmitry Medvedev's Building Project," *Economist*, November 26, 2009:

<http://www.economist.com/node/14973198>

(٣٣) كان ذلك عبر وسائل الاعلام الروسية الموالية للحكومة التي شنت حملة إعلامية تتهم الغرب بالتحريض على الاحتجاجات فيروسيا لتقويض وإضعافالبلاد بشكل منظم وتدرجي . للتفاصيل ينظر:

Karoun Demirjian, “Meanwhile in Russia, Putin Passes Law Against Protests”, *Washington Post*, 22July, 2014:

<https://www.washingtonpost.com/news/worldviews/wp/2014/07/22/meanwhile-in-russia-putin-passes-law-against-protests/>

(٣٤) ورثت روسيا مؤسسة الأمن القومي التابعة لها من الاتحاد السوفيتي جيلاً جديداً من مفكري السياسة الخارجية وممارسيها ذوي المواقف التقدمية نسبياً والذين كان من المتوقع أن يكون لديهم آراء أكثر استنارة حول العلاقات مع الدول المجاورة وترتيبات الأمن بعد الحرب الباردة في أوروبا. لكن الجيش الروسي والأجهزة الأمنية والدبلوماسية كانت كلها نتائج الحرب الباردة، إذ كان عدم ثقة بالغرب عميقاً ولم يكن من السهل التغلب عليهم من خلال التصريحات عن النوايا السلمية من جانب القادة الغربيين . ينظر،

Timothy Heritage, “Grachev: NATO Growth a Threat,” *Moscow Times*,28 March, 1996:

<http://www.themoscowtimes.com/news/article/grachev-nato-growth-a-threat/326450.html>

(٣٥) واجهت أجندة الإصلاح معارضة قوية، لقد أوضحت مؤسسة السياسة الخارجية رؤية أكثر طموحاً لمصالح الدولة عن الحالة الرهيبة للسياسة والاقتصاد الداخليين لروسيا. في تناقض حاد مع تصريحاته التصالحية السابقة، أعلن أمبارتسوموف رئيس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الروسي في عهد الرئيس بوريس يلتسين بوضوح المطالبة بحقوق روسيا الخاصة، وحتى المسؤوليات، في جميع أنحاء أراضي الدول السوفيتية السابقة، وأشار إلى أن المصالح الروسية تجاوزت حدود هذه الدول المستقلة حديثاً . ينظر:

Yevgeniy Ambartsumov,“Interesy Rossii Ne Znayut Granits” [Russian interests know no borders], *Mega polis-Express*, May 6, 1992.

(٣٦) كان الصراع في يوغوسلافيا السابقة عاملاً آخر في تشكيل تصورات التهديد ضد روسيا فيما يتعلق بحلف الناتو والأمن الأوروبي. بالنسبة لروسيا، التي مازالت تعاني من انهيار الاتحاد السوفيتي وتكافح من أجل التغلب على التحديات السياسية والاقتصادية المتعددة، كان الانهيار العنيف ليوغوسلافيا بمثابة تذكير بالمخاطر، لذا عارضت الحكومة الروسية بشدة تدخل الناتو في يوغوسلافيا باعتباره من بين أمور أخرى، سابقة محتملة لعمل مماثل من جانب الناتو في روسيا أو حول محيطها . ينظر:

Modest Kolerov, [Without the USSR] (Moscow, Regnum, 2008):

<http://journals.rudn.ru/international-relations/article/view/10418/9869>

(٣٧) عبر الرئيس الروسي بوريس يلتسين في بيان مكتوب عن "تفهمه" لرغبة بولندا في الانضمام إلى الناتو. ومع ذلك، بعد بضعة أسابيع فقط، في أكتوبر ١٩٩٣، أرسل الرئيس الروسي خطاباً إلى الرئيس الأمريكي آنذاك بيل كلينتون يوضح معارضته الشديدة للعضوية في التحالف من أجل بولندا أو أي دولة أخرى في وسط أو أوروبا الشرقية. - كان التغيير الواضح في موقف يلتسين بسبب ضغط من المؤسسة العسكرية الروسية التي ما زالت تعتبر الناتو تهديداً.

(٣٨) لم تتبن روسيا أيديولوجية عالمية بديلة للشيوعية، ولم تسد فيها ديمقراطية ليبرالية . وهي في مسعاها لاستعادة دور الدولة العظمى تبنت فكرة الدولة والسيادة والمجال الحيوي بذاتها كأنها أيديولوجية وأصبحت مصالح الدولة في مجالها الحيوي فوق كل شيء. . للتفاصيل ينظر:

الكسندر دوغين، اسس الجيوبولتيكي ومستقبل روسيا الجيوبولتيكي، ترجمة عماد حاتم، (بيروت، ٢٠٠٤).

(٣٩) جاء الخطاب الرسمي الروسي ليعبر عن ذلك بوضوح وبقوة بشأن السياسة الخارجية والأمنية في تلك الفترة من الرئيس الروسي بوتين شخصياً وذلك خلال خطابه الذي ألقاه في مؤتمر ميونيخ للأمن في عام ٢٠٠٧، ذلك الخطاب، الذي وصفه بعض الحضور بأنه يعيد للأذهان معالم الحرب الباردة. ينظر نص الخطاب على الرابط الإلكتروني:

<http://en.Kremlin.ru/events/president/transcript/24034>

(٤٠) لقد برر الرئيس ديمتري ميدفيديف ٢٠٠٨ - ٢٠١٢ مجال نفوذ روسيا استناداً الى وضعها بوصفها قوة عظمى، ووضح ان روسيا مثلها مثل باقي دول العالم لها مصالح خاصة في

بعض المناطق، وبالنسبة لروسيا، فإن مجال روسيا يرتبط بعلاقات خاصة وعلاقات لها تاريخها الخاص . ينظر:

Andrei P. Tsygankov, "Preserving Influence in a Changing World," *Problems of Post-Communism*, Vol. 58, No. 2, 2011, p. 44.

(٤١) في هذا المجال اوضح ريتشارد هولبروك انه خلال المفاوضات التي جرت في التسعينيات من القرن الماضي حول مشكلة البوسنة، بأن موسكو لم تبد زعامة في المفاوضات ولم تكن تمتلك قوة ادارة المفاوضات او التسبب بإفسادها، وكانت كل رغبات روسيا تتمحور حول استعادة الاحساس بانها لاتزال تشكل اهمية بالنسبة للعالم . ينظر:

Richard Holbrooke, 'To end a war: The Conflict in Yugoslavia - America's Inside Story. Negotiating with Milosevic, (New York, 1999), p.117.

(٤٢) من وجهة نظر موسكو، فإن تعزيزات الناتو لدول البلطيق وبولندا حتى الآن وفي المستقبل قد خرقت وعدًا رئيسيًا آخر قدمه الغرب إلى روسيا - بعدم نشر قوات قتالية كبيرة بشكل دائم على أراضي الأعضاء الجدد. بغض النظر عن التحذير - أن الوعد كان مشروطاً بـ "البيئة الأمنية الحالية والمتوقعة" والتي تم رفعها بضم القرم والعدوان في شرق أوكرانيا - لا يمكن أن يكون هناك شك في أن تعزيزات الناتو ينظر إليها من قبل مؤسسة الأمن القومي الروسية باعتبار ان أسوأ توقعاتها قد تتحقق لذا كان الغضب الروسي مبررا. ينظر:

NATO-Russia Relations, The Facts, North Atlantic Treaty Organization, last updated 17 December, 2015:

http://www.nato.int/cps/en/natohq/topics_111767.htm

(٤٣) لا تقوم سياسة روسيا الحالية على أيديولوجية عالمية، بل وطنية تركز على رأسمالية دولة تخاطب المشاعر الوطنية وترفض استغلال الغرب لنقاط ضعفها، ويتضح الموقف الوطني في عدم تبني مبدأ مصاغ أيديولوجيا، بل الانطلاق من مصلحة الدولة وامنها القومي. ينظر:

عزمي بشارة، "روسيا: الجيوستراتيجية فوق الايديولوجية وفوق كل شيء"، مجلة سياسات عربية، العدد ١٧، تشرين الثاني ٢٠١٥، ص ٧:

https://siyasatarabiya.dohainstitute.org/ar/issue017/Documents/Siyassat17-2015_Beshara.pdf